# التصوف والتاريخ

## قراءة في عجائب الآثار للجبرتي

د. خالد زيادة

كتاب «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار» لعبد الرحمن الجبرتي، مؤلف هام في الكتابة التاريخية، إذ يغطي مرحلة هامة من تاريخ مصر تمتد نحواً من قرن وربع قرن، بين عامي (١٦٩٤ و١٨٢٠ م). وقد اعتبر هذا الكتاب مصدراً رئيسياً في التأريخ لهذه المرحلة الطويلة التي شهدت أحداثاً وتحولات حاسمة في التاريخ المصري، خصوصاً أن مصر قد عرفت مع بداية القرن الثامن عشر استعادة أمراء المماليك لنفوذهم وتضاؤل قوة الولاة العثمانيين، ثم بروز أمر المملوك علي بك عام (١٧٦٧ م) مع ما شهده عهده من أحداث، ثم تقاسم المملوكين ابراهيم ومراد شأن مصر مع عام (١٧٧٦ م) حتى مجيء الفرنسيين عام (١٧٩٨ م) وإقامتهم مدة ثلاث سنوات. وبروز شأن محمد علي باشا وتوليه الزمام مع (١٨٠٦ م) حتى نهاية تاريخ الجبرتي، واستمراره لزمن طويل بعد ذلك.

لا شك، إذا، بأن ما يسجله الجبرتي من أخبار يشكل مادة هامة للمؤرخين المهتمين بهذه الحقبة أو تلك. ولا شك، أيضاً، بأن المادة التي يقدمها الجبرتي حول الحملة الفرنسية بشكل خاص تشكل بحد ذاتها مصدراً فريداً من مصادر التاريخ المصري المعاصر، لا نجد نظيره عند غيره من المؤرخين المعاصرين له؛ حتى اعتبر مؤرخاً للحملة الفرنسية التي يُفردُ لأخبارها حيزاً هاماً من مؤلفه الكبير.

والواقع، إنّ ضخامة الكتاب من جهة، وتعدد الحقبات التي يتناولها خلال قرن وربع قرن، كما ذكرنا، من جهة أخرى، قد أدّى إلى قراءة مجزوءة لهذا الكتاب. فقلما نعثر على مؤرخ معاصرٍ أو ناقدٍ حديثٍ يقرأ هذا الكتاب ـ أو تاريخ الطبري مثلاً ـ جملة واحدة ليستخلص الرؤية العامة التي من خلالها يكتب هذا المؤرخ أو

ذاك تاريخه. وبالنسبة **للجبرتي**، فإنّ القراء المعاصرين قد اهتموا بشكل خاص بالجزء الذي يتناول الحملة الفرنسية مهملين الأقسام الأخرى من الكتاب إلى حد بعيد. وهذه أولى مشكلات **الجبرتي** مع قرائه. ولكن ثمة مشكلة أخرى أشد تعقيداً يمكن أن تثار، وعليها تتوقف معرفة رؤية **الجبرتي** للتاريخ الذي يعاينه.

وكما نلاحظ من العنوان، يقسِّم **الجبرتي** تاريخه إلى قسمين **اثنين؛ الأول** يتناول الأخبار والأحداث، **والثاني** يتناول الأعلام المتوفين في كل سنة من السنوات التي يتحدث عنها المؤلف في كتابه. ومن الطبيعي أن ينكب المؤرخون المعاصرون على أحداث وأخبار التاريخ مهملين بشكل ملحوظ تراجم الرجال التي اعتبرت نوعاً من وفيات الأعيان. ولا شك بأن قراءة التراجم تسبب ضجراً لقارئها بسبب ما تتصف به من التكرار والتشابه، وإعادة ذكر الأسماء مراراً. وهذا ما نشعر به عند قراءة **«الكواكب السائرة»** للغزي أو **«سلك الدرر»** للمرادي، على سبيل المثال. إلا أنَّ المسألة ليست إياها بالنسبة **لتاريخ عجائب الآثار**، حيث يمكننا أن نلاحظ، عند القراءة المتأنية، أن التراجم تندمج اندمجاً تاماً بالأخبار. بل إن التراجم تكمل في أغلب الأحيان ما تنقصه الأخبار. فلا يمكننا أن نفصل الأولى عن الثانية إذا أردنا أن تستقيم قراءة هذا التاريخ، وبالتالي التعرف إلى الرؤية التي ينطلق منها **الجبرتي** ليصيغ تاريخه. ومن هنا، فإن قراءة ثانية لهذا التاريخ، على ضوء ما تقدم، تفيد في التعرف إلى تفسير **الجبرتي** للتاريخ.

## (١)

يذهب **الجبرتي** إلى ما ذهب إليه ابن خلدون في تفسيره لتاريخ البشر على الأرض. يرى ابن خلدون أنَّ الله قد استخلف البشر لإن إرادته هي اعتمار العالم بهم[١]. **أما الجبرتي** فيقول: «إنما يسمى الإنسان عادلاً لما وهبه الله قسطاً من عدله وجعله سبباً وواسطة لإيصال فيض فضله واستخلفه في أرضه بهذه الصفة حتى يحكم بين الناس بالحق والعدل، كما قال تعالى: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق».

أما اصناف العدل من الخلائق، كما يقول **الجبرتي**، فخمسة يرتبها على النحو التالي: **الأنبياء، العلماء، الملوك وولاة الأمور، أوساط الناس، والقائمون بسياسة نفوسهم**. يحتل **الأنبياء المرتبة الاولى** في هذا التصنيف فهم أدلاء الأمة وعُمُد الدين. إلاّ أن النبوة وقد انتهت في البشر، فلا بدَّ لهم من ورثة وهم العلماء: «الذين هم ورثة الأنبياء فهم فهموا مقامات القدوة من الأنبياء، وإن لم يعطوا درجاتهم.. هم خلاصة الله في خلقه». ولا بد لكل زمن من علمائه الخاصين به مهما تعاظم الخلل: «لأنه لا يخلو الزمن من محقيهم وإن كثر المبطلون، ولكنهم أخفياء مستورون تحت قباب الخمول لا تكشف عن حالهم يد الغيرة الإلهية والحكمة الأزلية»[٣]. وينبغي أن نتنبه، هنا، إلى المعنيين اللذين يستخدمهما **الجبرتي** لكلمة **عالم**، فمن **ناحية** تشير إلى المحدّثين والفقهاء والأئمة والوعاظ. ومن ناحية أخرى تشير إلى أصحاب الكرامات والإشارات من العارفين السالكين الزهاد وغيرهم. وبما أن العلماء بالإضافة إلى ولاة الأمور بشكل خاص، هم الذين يقيمون العدالة على الأرض،

فإن كتابة تراجمهم وتواريخهم تكمل لدى **الجبرتي** تاريخ الأحداث والأخبار والماجريات. بل إن تراجم هؤلاء لتفسر لنا هذا المسار من الأحداث المتكررة التي شهدها القطر المصري حسب تعبير **الجبرتي**.

**والجبرتي** نفسه كان سليل عائلة من العلماء التي اشتهرت بعلمائها المنتمين إلى الطريقة **الصوفية الخلوتية**، وهي إحدى الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي. ويقدم **الجبرتي** ما يشبه التأريخ لهذه الطريقة[٤] والكيفية التي يتدرج فيها المريد الى مرتبة أعلى فأعلى حتى بلوغ الدرجة السابعة. يقول: «اعلم أن سلسلة القوم هذه هي كيفية أخذ العهد والتلقين مروية عن **النبي** صلى الله عليه وسلم، وهو يرويه عن **جبريل**، وهو يرويه عن **الله** عز وجل»[٥]. ويتضح من ذلك أن المريد كلما تقدم إلى مرتبة أرقى كلما ازداد علمه حتى يبلغ الكمال في العلم المتصل بعلم الله. ويمكن لنا أن نتعرف إلى بعض معتقدات **الخلوتية** ـ المشتركة مع غيرها من معتقدات سائر الصوفيين ـ من خلال ما يذكره خلوتي متقدم: «إن الكون لا يخلو من الأولياء لا سيما منهم من ربط الله سبحانه بهم تدبير هذا الكون على ما اقتضته حكمته الباهرة كالقطب والإمامين والأوتاد والأبدال. فإنه لو فُقد واحد منهم لاختل نظام العالم على ما دبر الحق.. على أن الغالب في حال الأولياء الاحتجاب عن أمثالنا والتستر بكل ما يمكن لا سيما منهم **القطب** رضي الله تعالى عنه»[٦].

والواقع، إنَّ هذا الاعتقاد المشترك بين اتباع الطرق المختلفة، كان اعتقاد **الجبرتي** نفسه أيضاً. وهو حين يترجم للعلماء، فإنما يبحث بالدرجة الأولى عن الأولياء العارفين المنوط بهم تدبير هذا الكون. ومن هنا يمكن أن نفهم معنى عبارته التي يوردها في مقدمة كتابه حين يقول: «لا يخلو الزمان من محقيهم وإن كثر المبطلون، ولكنهم أخفياء مستورون.. وهم آحاد الأكوان وأفراد الزمان وخلفاء الرحمن»[٧].

## (٢)

كان اعتقاد **الجبرتي** الصوفي اعتقاداً شائعاً لدى الغالبية العظمى من سكان مصر. وإذا كانت **الصوفية** تعني من ضمن ما تعنيه الإيمان بقوى غيبية تكون لبعض الأفراد فتأتي على أيديهم الخوارق والكرامات، فإن جميع سكان مصر، في القرن الثامن عشر، وكذلك غيرهم من أهل الأقاليم الاسلامية الأخرى، كانوا يشتركون فيما بينهم في هذا الإيمان.

والطرق الصوفية كانت منتشرة انتشاراً واسعاً من خلال حلقاتها المنتشرة في كل المدن. وكذلك في الأرياف، ومنها **الشاذلية والقادرية والخلوتية والأحمدية والرفاعية**. وقد كانت هذه **الطرق الصوفية** وغيرها تسيطر على الحياة المهنية من خلال إمساكها بالطوائف الحرفية التي كانت تنظم الحياة اليومية في المدن. وكان الإيمان بالخوارق والأحوال العجيبة أوسع انتشاراً من انتشار الطرق ذاتها. ولكي نتفهم هذا الانتشار الواسع للتفكير الصوفي الغيبي. يمكننا أن نقارن مع الوضع الراهن حيث تنتشر الأحزاب السياسية والاتجاهات السياسية، حيث يندر أن نجد من لا يملك ميلاً سياسياً مع هذا الاتجاه أو ذاك.

ويقدم لنا **الجبرتي** في **عجائب الآثار** فكرة شاملة عن الحياة العقلية في مصر والتي يسيطر عليها الأولياء وأرباب الأحوال وأصحاب الخوارق والكرامات، وذلك من خلال تراجم أولئك الأشخاص الذين ملكوا قلوب العامة. ومن هؤلاء **الشيخ المجذوب أحمد أبو شوشة** خفير «باب زويلة»، كانت كراماته ظاهرة، وكان يضع في فمه نحو المائة إبرة[٨]. **والشيخ الصالح قطب الوقت** المشهور بالكرامات معتقد أرباب الولايات **الشيخ عبدالله**.. وكان يُحكى عنه كرامات غريبة وأحوال عجيبة[٩]. ومنهم أيضاً **السيد محمد البنشيتي السقاف باعلوي** أعجوبة زمانه، ولد باليمن وكان يأخذه **الحال** فيطعن نفسه بالسلاح[١٠]. ويذكر **الجبرتي** رجالاً من أصحاب **الحضرة** الذين يرون **النبي** عياناً[١١]. ويتحدث عمن كرمه الله بإنارة قبره بنور مثل القنديل[١٢]. كما يروي أن الأجل الناسك المسلك العارف **الشيخ محمد بن عبد الحافظ أفندي الخلوتي** قد اشتهر في الناس أن الجن تخدمه. ويعلق الجبرتي قائلاً: وليس ببعيد لأنه كان من أهل المعارف والأسرار[١٣].

ويظهر لنا أن عوام الناس وأصحاب المهن الخسيسة وكذلك النساء، كانت لهم حساسية مفرطة تجاه **المجاذيب** الذين يدعون خوارق الأعمال. ويذكر لنا **الجبرتي** أن رجلاً من أهل **«الفيوم»** جاء إلى **القاهرة** فاجتمع عليه كثير من العوام، وادعوا فيه الولاية، وأقبلت عليه الناس من كل جهة واختلط النساء بالرجال وكان يحصل بسببه مفاسد عظيمة، فقامت عليه العسكر وقتلوه **بالقلعة**. كان ذلك في السنة الأخيرة من القرن السابع عشر. أما في سنة (١٧٣٠ م.)، فقد ظهر، في **الأزهر**، رجل يَدَّعي النبوة فاجتمع عليه الناس والعامة رجالاً ونساءً ثم إنهم أخفوه عن أعين الناس[١٤]. وفي سنة (١٧٨٤ م) تعلقت امرأة برجل من **المجاذيب** المشهورين والمعتقدين لدى العوام، فصارت تمشي خلفه وتخلط بألفاظها فاعتقدها النساء وهادوها بالدراهم والملابس وأشاعوا أن الشيخ لحظها وجذبها وصارت من الأولياء.. وزاد الحال وكثر خلفهم الأوباش.. ويصير لهم في مرورهم ضجة عظيمة[١٥].

تلك لمحة موجزة مما يقدمه **الجبرتي** عن الوضع في مصر على امتداد القرن الثامن عشر. إلا أن التعرف إلى موقف المؤلف من هذه الوقائع ليس بالأمر السهل. **فالجبرتي** يبرز للقارىء مواقف متناقضة، فتارة يبدو محايداً، وتارة يظهر مشككاً، وقد يصرح بنقده لأفعال بعض **المجاذيب** وسلوك العامة، وقد يصرح على العكس بموقف المؤمن المعتقد المؤيد. والقارىء المتسرع الذي يبحث عن الأخبار ويمر مروراً سريعاً على التراجم سيعتبر حديث **الجبرتي** عن **الأولياء والأقطاب والمجاذيب والكرامات والخوارق**، وغير ذلك، نوعاً من الكتابة التقليدية التي لا تستحق الوقوف عندها. وواقع الأمر، أن المسألة لا تتعلق، هنا، بنوع من الكتابة التقليدية فقط، والمواقف المتناقضة ظاهرياً تعبر، في النتيجة، عن وجهة نظر متكاملة كما سنرى بعد قليل.

يروي **الجبرتي** في أخبار عام (١٧١١ م.) أن الدولة العثمانية أوفدت آغا من طرفها لمتابعة بعض القضايا في مصر. إلا أن الآغا يتجاوز مهمته الأساسية فيجلس في جامع **المؤيد** للوعظ حيث يكثر عليه الناس، فيذكر الآغا أن ما يفعله أهل مصر بضرايح الأولياء، وإيقاد الشموع والقناديل هو من قبيل الكفر. ويتعرض الآغا التركي لقول **الشيخ الشعراني**، ويعتبر أن ما ذكره من اطلاع بعض الأولياء على اللوح المحفوظ غير صحيح لأن

الأنبياء لا تطلع على هذا اللوح اصلاً . وقد أحدثت هذه الأقوال صدى بعيد المدى، **فتحزبت جماعة للآغا**، واجتمع عليه من العامة زيادة عن ألفِ نفسٍ ، وكادت أن تقع الفتنة خصوصاً وأن المحازبين قد تعرضوا للقاضي . ولم تنته الواقعة إلا بعد تسوية بين الآغا من ناحية والقاضي والوالي من ناحية أخرى[١٦] . والذي يعنينا من هذه الواقعة هو موقف **الجبرتي** الذي يعرض المسألة بحيادٍ تامٍ دون أن يعلق عليها بشيء، إلى درجة تتراءى لنا صورة المؤرخ الموضوعي قد غلبت على كل ما عداها ، فلا نستطيع أن نستنتج ما إذا كان **الجبرتي** يؤيد **الآغا** أم **القاضي** وهل يعتقد بقول **الشعراني** أم يعترض عليه؟

لكن **الجبرتي** يتخذ مواقف متشككة من بعض العلماء والشيوخ في اكثر من مناسبة . فحين يتحدث عن **محمد مرتضى الزبيدي** يذكر مدى التأثير الذي ملكه هذا العالم على طلبته بعد قدومه إلى مصر . ولا ينكر ما له من عمق معرفة واطلاع . ويذكر **الجبرتي** أن أهل المغرب كان لهم اعتقاد زائد به وربما اعتقدوا فيه « القطبانية العظمى »، إلا أن **الجبرتي** يذكر بعض الأساليب الملتوية التي كان يستعملها **الزبيدي** ليملك قلوب هؤلاء المغاربة؛ كما يتهمه بنوع من المخادعة، إذ أن **الزبيدي** أرسل مرة إلى **أحمد باشا** الجزار مكتوباً وذكر له فيه أنه **« المهدي المنتظر »** وسيكون له شأن عظيم فوقع عنده بموقع الصدق لميل النفوس إلى الأماني[١٧] .

ونجد **الجبرتي** وقد اتخذ موقف المنتقد المتشدد في بعض الأحيان من **المجاذيب والدجالين** . ومن ذلك نقده الشديد للرجل المغربي الذي ادَّعى **« المهدوية »** زمن الحملة الفرنسية، وجرّ الناس إلى القتال[١٨] . وانتقاده أيضاً خروج الناس لزيارة ضريح **السيد علي البكري** خصوصاً وأن الفرنسيين قد رأوا في الموالد والجمعيات خروج الناس عن الشرائع، واجتماع النساء واتباع الشهوات، والتلاهي بفعل المحرمات[١٩] .

على الرغم من ذلك، وبغض النظر عن هذه المواقف المشككة والمنتقدة والمتكررة في أكثر من مناسبة، نجد **الجبرتي** في مناسبات أخرى وقد اتخذ موقف المعتقد من **كرامات الأولياء** والمؤمن **« بقطبانية »** بعض الأئمة والعلماء والنساك . بل إن ما ينكره من خروج الناس لزيارة ضريح **السيد علي البكري**، يتقبله لدى زيارة ضريح **السيد الرزوقي** . يذكر **الجبرتي** أن قبر **الرزوقي** صار مزاراً عظيماً يُقصدُ للزيارة ويختلط به الرجال والنساء . . ثم إنهم ابتدعوا له موسماً وعيداً في كل سنة يدعون إليه الناس من البلاد القبلية والبحرية، فينصبون خياماً كثيرة ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وفلاحي الأرياف وأرباب الملاهي والملاعب والغواني والبغايا والقراوين والحواة . . ويجتمع لذلك أيضاً الفقهاء والعلماء وينصبون لهم خياماً أيضاً، ويقتدي بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار، بل ويعتقدون ذلك قربة وعبادة؛ ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلاً عن كونهم يفعلونه[٢٠] . وينبغي أن نلاحظ تعليق **الجبرتي** في العبارة الأخيرة حيث يظهر القبول والتسليم بموقف العلماء .

ويظهر لنا **الجبرتي** مقتنعاً بان الشيخ **محمد القليني** المتوفي سنة ( ١٧٥٠ م )، كان ينفق من الغيب لأنه لم يكن له إيراد ولا ملك ولا وظيفة ولا يتناول من أحد شيئاً وينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وإذا مشى في السوق تعلق به الفقراء فيعطيهم الذهب والفضة[٢١] . ويتحمس **الجبرتي لمحي الدين بن عربي** « قدس الله سره »، فيذكر أن

الإمام **الشرنبابلي** كان من الأذكياء، غير أنه كان كثير الوقيعة في الشيخ **محي الدين بن عربي**.. فألف مرة رسالة في الرد عليه، في ليلة من الليالي، ونام فاحترق المنزل واحترقت تلك الرسالة من جملة ما احترق من الكتب. ويضيف **الجبرتي** معقباً: «ولما كان عليه مما ذكر لم يخل حاله عن ضيق وهيئته عن رثاثة»[٢٢].

تلك بعض مواقف **الجبرتي** من هذا العالم الصوفي، ومن رجاله من مُدَّعي القدرة والكرامة والخوارق. وهي مواقف متناقضة ظاهرياً إلى حد بعيد، إلا أن هذا التناقض قد ينجلي إذا أخذنا بالاعتبار المسائل التالية:

إنَّ حياد **الجبرتي** في عرضه بعض الوقائع والأخبار وتركها من غير تعليق، ولو قصير، يعود بالدرجة الأولى إلى اعتنائه بتسجيل ما سمعه وما رآه عناية المأخوذ بمهنته التأريخية. إلا أن هذا الميل لدى **الجبرتي** لا يخفي شكه في بعض المنتمين إلى طرق صوفية غير التي ينتمي إليها، إن التنافس بين الطرق الصوفية ليذكرنا بصراعات الأحزاب السياسية راهناً، والجبرتي لا يظهر مقتنعاً إلا بأولئك الخلوتيين المنتمين إلى ذات الطريقة التي ينتمي إليها، وانتمى إليها من قبل أباؤه وأجداده. أما الانتقادات الشديدة الى بعض المجاذيب من مدّعي الكرامات والخوارق فينبغي أن ندرجها ضمن موقف **الجبرتي** العدائي للتصوف الشعبي العامي، حيث يبرز، بين الحين والآخر، دجالون متسرعون لحيازة قلوب العامة، **والجبرتي** ينتهز الفرصة اكثر من مرة للنيل من فقراء **الأحمدية والرفاعية**. وبالرغم من كل هذا، فإن **الجبرتي** لا يستطيع إلا أن يظهر لنا اعتقاده ويقينه حين يتعلق الأمر بكرامات **أئمة ومشايخ الخلوتية** التي ينتسب إليها كما ذكرنا.

ومن بين المعتقدات التي آمن بها، اعتقد **الجبرتي** بأنَّ ثمة رجلاً يتولى «**القطبانية**» في كل زمن. وعلى هذا **القطب** يعول بتدبير الأحوال والسياسات. وكان يعتقد بوجود أكثر من **قطب** في وقت واحد إذ يختص كل واحد بشأن **القطر** الذي يعيش فيه.

## (٣)

يخبرنا **الجبرتي** أن نزول النوازل واستمرار البلاء المتراسل، إنما تدل عليه إشارات سماوية وإنذارات فلكية[٢٣]، ومن ذلك **الخسوف والكسوف والزلازل والطواعين**، وكلها أسباب عادية وعلامات من غير أن ينسب لتلك الآثار تأثيرات، وهي العلامات الدالة على زوال الدول وتغير الأحوال.

ومنذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي، الثاني عشر الهجري تقريباً، كانت تتجمع الإشارات المنذرة بالعواقب الوخيمة. ففي سنة(١١٠٧ هـ./١٦٩٥ م.)اجتمع الفقراء والشحاذون رجالاً ونساءً وصبياناً، وطلعوا إلى القلعة، وصاحوا من الجوع.. وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء[٢٤]. وفي سنة(١١٤٧هـ./١٧٣٤ م.) ظهرت إشارات مختلفة منها ما أشيع في الناس بمصر بأن القيامة ستقوم يوم الجمعة.. وفشا هذا الكلام في الناس حتى في القرى والأرياف[٢٥].وفي عاشر ذي الحجة يوم الأضحية من ذات السنة خرجت ريح سوداء غريبة اظلمت منها الدنيا وحجبت نور الشمس، فغرق منها مراكب وسقطت أشجار[٢٦]. ومن الحوادث أيضاً في تلك المدة وقوع الطاعون،وصارت الناس تدفن الموتى بالليل في ضوء المشاعل[٢٧].

إلا أن النصف الأول من القرن الثامن عشر، وإن كانت الإشارات تتجمع فيه لتشير إلى الاختلال المقبل، كان لا يزال يعرف الخير. إن الماضي هو أفضل من الحاضر ومن المستقبل، تلك هي الوجهة التي تدير دفة أحداث القرن الثامن عشر. وكان الرخاء لا يزال بادياً حتى ستينات القرن، والذي أصبح اليوم جزءًا من الماضي. يقول **الجبرتي**: «إني أدركت بقايا تلك الأيام، وذلك أن مولدي كان في سنة (١١٦٧هـ/١٧٥٣م)، ولما صرت في سن التمييز رأيت الأشياء على ما ذُكر إلا قليلاً، وكنت أسمع الناس يقولون الشيء الفلاني زاد سعره عما كان في سنة كذا، وذلك في مبادىء دولة ابراهيم كتخدا وحدوث الاختلال في الأمور. وكانت مصر إذ ذاك محاسنها باهرة وفضائلها ظاهرة ولأعدائها قاهرة، يعيش رغداً بها الفقير وتتسع للجليل والحقير، وكان لأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لا توجد في غيرهم..»[٢٨].

وذلك الزمن كان زمن لا تخلو فيه الكرامات والخوارق، ويكثر فيه الأولياء والأقطاب؛ حتى ظهر شأن **علي بك بلوط قبن**[٢٩] واستفحل أمره سنة (١١٧٤ هـ/١٧٦٠ م.). وبدأ الصراع آنذاك بين أمراء المماليك، ذلك أن **علي بك** استطاع أن يجمع حوله بعض المماليك ومشايخ العرب، واستقر **علي بك وصالح بك** وجماعتهم **بالمنية** وبنوا حولها أسواراً وأبراجاً وركّبوا عليها المدافع، وقطعوا الطريق على المسافرين المبحرين والمقبلين. وأراد **أمراء مصر** أن يعالجوا الأمر بشن حملة على **علي بك** وجماعته، وتشاوروا في الأمر، وعقدوا من أجل ذلك مجلساً. وكان **الشيخ الحفناوي** حاضراً، فتكلم في المجلس وأفحمهم بالكلام، ومانع في ذلك، وحلف أنه لا يسافر أحد بتجريدة مطلقاً، وإن فعلوا ذلك لا يحصل لهم خير أبداً. والتزم المجتمعون برأي **الشيخ الحفناوي**، ولم يسعهم إلا الامتثال، ولكن الذي حدث هو أن الشيخ لم يلبث بعد هذا المجلس إلا أياماً ومرض ورمى بالدم وتوفي الى رحمة الله تعالى؛ فيقال إنهم أشغلوه وسموه ليتمكنوا من أغراضهم[٣٠].

إنه لحادث عارض ولا شك، **فالجبرتي** لا يخبرنا خلال حديثه عما جرى في المجلس المذكور من هو **الشيخ الحفناوي**، وماذا كان يفعل مع الأمراء؟ أما موته السريع فلا يترك للقارىء متسعاً للتأمل في زحمة الموت المتاكثر والقتال، إذ يتابع **الجبرتي**، بعذ ذلك، أخبار صراعات المماليك ومعاركهم. لكن **الجبرتي** يعود إلى هذه الحادثة حين يصل إلى ترجمة **الشيخ الحفناوي**، فيذكر أنه: «الإمام العلامة الهمام أوحد أهل زمانه علماً وعملاً. ومن أدرك ما لم تدركه الأول. المشهود له بالكمال والتحقيق والمجمع على تقدمه في كل فريق، شمس الملة والدين محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخوتي»[٣١]. وبعد أن يتحدث عن رحلاته وكراماته وأشياخه ومريديه؛ يصل إلى ذكر خبر وفاته، وعندها نفهم سر مجمل الأحداث النازلة بمصر:

«ومن ذلك التاريخ ابتدأ نزول البلاء، واختلال أحوال الديار المصرية، وظهر مصداق قول الراغب أن وجوده أمان على أهل مصر من نزول البلاء. وهذا من المشاهد المحسوس، وذلك أنه إذا لم يكن في الناس من يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الهدى، فسد نظام العالم وتنافرت القلوب؛ ومتى تنافرت القلوب نزل البلاء. ومن المعلوم المقرر أن صلاح الأمة بالعلماء والملوك، وصلاح الملوك تابع لصلاح العلماء، وفساد اللازم بفساد الملزوم، فما بالك بفقده، والرحى لا تدور بدون قطبها. وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار

المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه وإذنه. ولما شرع الأمراء القائمون بمصر في اخراج التجاريد لعلي بك وصالح بك واستأذنوه فمنعهم من ذلك وزجرهم وشنع عليهم، ولم يأذن بذلك كما تقدم، وعلموا أنه لا يتم قصدهم بدون ذلك، فأشغلوا الأستاذ وسموه وعند ذلك لم يجدوا مانعاً ولا رادعاً وأخرجوا التجاريد وآل الأمر لخذلانهم وهلاكهم والتمثيل بهم. ونزل البلاء حينئذ بالبلاد المصرية والشامية والحجازية ولم يزل يتضاعف حتى عمَّ الدنيا وأقطار الأرض. فهذا هو السر الظاهري وهو لا شك تابع للباطني، وهو القيام بحق وراثة النبوة وكمال المتابعة وتمهيد القواعد وإقامة أعلام الهدى والإسلام وإحكام مباني التقوى لأنهم أمناء الله في العالم وخلاصة بني آدم..»[٣٢].

كان **الشيخ الحفناوي** إذاً خليفة الوقت وقطب الزمن، ولم يبقَ ولي من أهل عصره إلا أذعن له. وليس لنا الآن سوى أن نراقب الأحداث بعد موته. صحيح أن **الحفناوي** لم يكن آخر الأولياء، إذ أن الزمن لا يخلو من محقيهم وإن كثر المبطلون، إلا أن الفترة اللاحقة قد شهدت اضطراد الخلل وتفاقم المصائب. **والجبرتي** يذكر لنا بعض الأولياء المتوفين بعد **الحفناوي** بسنوات عديدة منهم الولي **الشيخ علي البيومي**[٣٣] **الخلوتي المتوفي** عام (١٧٦٩م) والولي العارف المجذوب **أحمد النشرتي**[٣٤] من أرباب الأحوال والكرامات المتوفي عام (١٧٧٠م)؛ والسيد العلامة **علي بن موسى**[٣٥]، وكان له اجتماع بالأبدال وأرباب الكشف، وكان ينتقل في درسه إلى الرد العنيف على أرباب الأموال والاكابر وملوك الزمان وينسبهم إلى الجور والعدوان وانحرافهم عن الحق، فسمه يهودي ومات مسموماً عام (١٧٧٠ م). والشيخ الإمام القطب **عبد الرحمن العيدروسي**[٣٦] توفي عام (١٧٧٨ م)، ولم يخلف بعده مثله. والشيخ محمود الكردي الخلوتي[٣٧]، وكان يجتمع بالخضر عليه السلام توفي (١٧٨٠ م).

وتلاحقت في المدة ذاتها الحروب والانتهاكات والتعديات والتقاتل، بما في ذلك موت علي بك، وأبي الذهب من بعده. واشتد الغلاء وتراترت المصادرات والمظالم. واشتد الكرب والضنك على الناس وأهل البلاد. وكثر تعدي المفسدين، وغلت الأسعار، وشحَّ وجود الغلال[٣٨]. وانقضت هذه السنة (١٧٨٣ م) كالتي قبلها في الشدة والغلاء[٣٩]. فحلَّ بالناس ما لا يوصف من أنواع البلاء.. وفسدت النيات، وتغيرت القلوب، ونفرت الطباع، وكثر الحساد، والحقد في الناس لبعضهم البعض، فيتتبع الشخص عورات أخيه، ويدلي به إلى الظلم، حتى خرب الإقليم، وانقطعت الطرق، وعربدت أولاد الحرام، وفقد الأمن، ومنعت السبل إلا بالخفارة وركوب الغرر. وجلا الفلاحون من بلادهم من الشراقي والظلم وانتشروا في المدينة بنسائهم واولادهم يصيحون من الجوع[٤٠].

ولم يعد لاكرامات والخوارق ظهور في تلك السنوات إلا القليل، بل ظهرت الحوادث المستهجنة.. كالامرأة التي تعلقت بأحد المجاذيب وكشفت وجهها وتكلمت بفاحش القول[٤١]، سنة (١٧٨٥ م). وفي ذات السنة ظهر الطاعون في الشام. ووردت الأخبار بوصول **حسن باشا** إلى «ثغر رشيد»؛ واستبشر الأهالي بوصوله من جانب

الدولة وتحولوا عن الأمراء المصريين. لكن **حسن باشا** غادر مصر في السنة التالية، ولم يحصل من مجيئه إلى مصر وذهابه منها إلا الضرر. ولم يبطل بدعة، ولم يرفع مظلمة بل تقررت به المظالم والحوادث...، وخابت فيه الآمال والظنون.

وظهر امر الطاعون في مصر سنة (١٧٨٧ م)، وهو من الإنذارات السماوية، وفي ذات السنة اشتد العسف في الرعية. ونهب العرب قافلة التجار والحجاج الواصلة من السويس[٤٢]. وحصلت زلزلة في العام التالي[٤٣]. واشيع سنة (١٧٩٠ م) أن زلزلة عظيمة ستحصل[٤٤]. وابتدأ أمر الطاعون ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه، فلا تجد إلاَّ مريضاً، أو ميتاً، أو عائداً، أو معزياً، أو مشيعاً، أو راجعاً من صلاة جنازة، أو دفن، أو مشغولاً في تجهيز ميت[٤٥].

ودخلت سنة (١٢٠٧ هـ/١٧٩٢ م)، والأمر في شدة من الغلاء وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها[٤٦].. وشحت النفوس واحتجب المساتير. ودخلت سنة (١٢٠٩ هـ/١٧٩٤ م)، ولم يقع فيها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء[٤٧]. ودخلت سنة (١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م)، ولم يقع فيها شيء من الحوادث التي يعتنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم[٤٨]. أما سنتا (١٢١١ و١٢١٢هـ/ ١٧٩٦ ـ ١٧٩٧ م)، فلا يذكر من أخبارها سوى ما يلي:

«لم يقع فيهما من الحوادث التي تتشوَّف لها النفوس أو تشتاق إليها الخواطر فتقيد في بطون الطروس سوى ما تقدمت إليه الإشارة من أسباب نزول النوازل وموجبات ترادف البلاء المتراسل ووقوع الإنذارات الفكلية، والآيات المخوفة السماوية، وكلها أسباب عادية وعلامات من غير أن ينسب لتلك الآثار تأثيرات، فبالنظر في ملكوت السماوات والأرض يستدلون وبالنجم هم يهتدون، فمن أعظم ذلك حصول الخسوف الكلي في منتصف شهر ذي الحجة ختام سنة اثنتي عشرة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب إليه إقليم مصر. وحضرت طائفة الفرنسيس إثر ذلك في أوائل السنة التالية كما سيأتي خبر ذلك مفصلاً»[٤٩].

## (٤)

منذ وفاة **الشيخ الحفناوي** مسموماً عام (١٧٦٧ م) وحتى عام (١٧٩٨ م)، كانت الأحداث تتراكم والانذارات تتوالى وصولاً إلى الحدث المخيف. ولا يخبرنا **الجبرتي** لماذا لم يستطع السيد الإمام العارف القطب **عفيف الدين أبو السيادة عبدالله بن ابراهيم ميرغني**[٥٠] المتوفي عام (١٧٩٢ م)، صاحب الكرامات الكثيرة والذي كان يتلقى مباشرة عن جده الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أن يتدبر الأمور ويزيح البلاء عن أهل مصر. ولكن **الجبرتي** يذكر بين الحين والحين، وكلما مرت الأيام وتزايدت الانتهاكات قوله تعالى: ﴿إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ (**الإسراء: ١٦**).

ودخلت بعد ذلك السنة التي حضرت فيها الطائفة الفرنسية إلى الديار المصرية وهي سنة (١٢١٣ هـ ـ /١٧٩٨ م) وهي أيضاً:

« أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن وا ختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال، وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[٥١].

قاد، اذاً، فساد أهل مصر إلى هذه الشرور المتتابعة، بل إلى انقلاب الأحوال. وفسدَ التدبير وهذا يعني أن العلماء والسالكين والعارفين، وهم ورثة الأنبياء والمنوط بهم إقامة العدل، لم يعد بإمكانهم ضبط الأمور بالرغم من أن الزمن، أي زمن، لا يخلو من محقيهم، وإن كثر المبطلون. لقد عمّ الخراب لكن الله كان قد أنذر به الظالمين.

وعندما اقتربت الجيوش الفرنسية، عمل **المشايخ** ما بمقدورهم. كان العلماء يجتمعون في **الأزهر** لقراءة **« البخاري »**وغيره من الدعوات، وكذلك **مشايخ « فقراء » الأحدية، والرفاعية، والبراهمة، والقادرية، والسعدية**[٥٢]... وجلس **« مشايخ »** العلماء بزاوية **علي بك ببولاق** يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر[٥٣]. وأما القاهرة فخلت طرقها من الناس.. وأما الأرياف فإنها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً. وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب واخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد الذي لا يحصى[٥٤].

إنها القيامة بدون شك، فقد سيطر الفزع والروع والجزع على الجميع، فخرج أعيان الناس وافندية الوجاقات واكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهرب واللحاق بهم. والحال أن الجميع لا يدرون أي جهة يسلكون واي طريق يذهبون واي محل يستقرون[٥٥]. وعندما هدأت العاصفة وتكشفت الانقلابات التي أحدثتها في قطر مصر، عاد اهل مصر الى بدعهم، وانقطع أثر كثير من ارباب الصنائع. وترفع اسافل النصارى وتقلدوا السيوف وتوكلوا بشؤون المسلمين والتعدي على الاعيان. وهدمت المنازل. وتبرجت النساء وخرج غالبهن عن الحشمة والحياء. وهدمت القباب والمدافن[٥٦].

وتوالت الاشارات السماوية المنذرة بالعواقب الوخيمة، حتى بعد رحيل الفرنسيين، ولم تمر سنة دون ظهور إشارة أو اكثر من خسوف وكسوف وزلزلة:

« احمرت السماء بالسحاب عند غروب الشمس.. ولعل ذلك من الملاحم المنذرة بحادث من الحوادث[٥٧]. كسفت الشمس وقت الضحوة.. نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة[٥٨]. حصول خسوف للقمر جزئي[٥٩]. وقع خسوف قمري وطلع من المشرق منخسفاً[٦٠]. حصلت زلزلة وارتجت الأرض، وحصول خسوف قمر كلي[٦١]. ومن الحوادث السماوية أن غيمت السماء بناحية الغربية[٦٢]. غيمت السماء بالسحاب

و أمطرت كثيراً ونزل مطر فيه سمكاً صغيراً[٦٣]. وظهر نجم له ذنب في جهة الشمال وصار يظهر في كل ليلة والناس ينظرون إليه ويتحدثون به ويسألون الفلكيين عنه ويبحثون عن دلائله وعن الملاحم المصنفة في ذوات الأذناب واستمر ظهوره قريباً من ثلاثة أشهر واضمحل بعض جرمه ومشى الى ناحية الجنوب وقرب من النسر الطائر[٦٤] وزاد الإرجاف بحصول الطاعون.. فأمر الباشا بعمل «كورنتينة».. وكذلك أخذوا يقرأون بالمساجد والزوايا سورة الملك والاحقاف في كل ليلة بنية رفع الوباء. وكسفت الشمس[٦٥]، وانخسف جرم القمر جميعه[٦٦]».

ومع توالي الإشارات السماوية كان ظهور الأولياء يتناقص بشكل ملحوظ حتى وفاة **الإمام الصالح الشيخ محمد بن سيرين المقدسي**، ولم يخلف بعده مثله وبه ختمت دائرة **المسلكين** من **الخلوتية** ورجال **السادة الصوفية**[٦٧]. حتى أنَّ سنة (١٢٢٦ هـ./١٨١١ م.) لم يمت فيها من الفقهاء من له شهرة أو ذكر[٦٨]. بينما أولو الامر يعاكسون المطبوع.

«أذِنَ **الباشا** لولده الكبير بالذهاب لزيارة **سيدي أحمد البدوي**.. وسافَر **مصطفى آغا الوكيل** في هيئة لم يسبق مثلها في تختر وأثاث وعربات وأحمال وجمال وعساكر وخدم وفراسين.. ونحو ذلك، وأظن أن هذه المحدثات من أحوال القيامة»[٦٩].

ويخبرنا **الجبرتي** أن هذه الحوادث، التي هي من «**أحوال القيامة**» كما يظن، ربما استمرت إلى ما شاء الله بدوامها وانقضائها[٧٠].

## الحواشي

(١) ابن خلدون: **المقدمة**. دار القلم بيروت ١٩٧٨، ص٤٢.
(٢) الجبرتي: **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**. دار الجيل، بيروت ١٩٧٨، المجلد الأول، ص١٤.
(٣) الجبرتي: **نفسه**، م١ - ص(١٤ - ١٥).
(٤) نفسه، م١ - الصفحات (٣٤١ - ٣٥١).
(٥) نفسه، م١، ص٣٤٥.
(٦) نفسه، م١، ص٢١.
(٧) نفسه، م١، ص١٥.
(٨) نفسه، م١، ص١٢٢.
(٩) نفسه، م١، ص١٣١.
(١٠) نفسه، م١، ص١٣٦.
(١١) نفسه، م١، ص٣٣٢.
(١٢) نفسه، م١، ص٤٤٠.
(١٣) نفسه، م٢، ص١٥٣.
(١٤) نفسه، م١، ص٢١٩.

(١٥) نفسه، م١، ص ص (٦١٥ - ٦١٦).
(١٦) نفسه، م١، الصفحات (٨٣ - ٨٤ - ٨٥).
(١٧) نفسه، المجلد الثاني، الصفحات (١٠٣ - ١٠٩ - ١١٠).
(١٨) نفسه، م٢، ص ٢٧٤.
(١٩) نفسه، م٢، ص ٣٠٦.
(٢٠) نفسه، المجلد الأول، ص ٣٠٤.
(٢١) نفسه، م١، ص ٢٨٠.
(٢٢) نفسه، م١، ص ٣٦٨.
(٢٣) نفسه، المجلد الثاني، ص ١٧٦.
(٢٤) نفسه، المجلد الأول، ص ٤٧.
(٢٥) نفسه، م١، ص ٢١٩.
(٢٦) نفسه، م١، ص ٢٢١.
(٢٧) نفسه، م١، ص ٢٢٢.
(٢٨) نفسه، م١، ص ص (٢٨٧ - ٢٨٨).
(٢٩) نفسه، م١، ص ٣١٠.
(٣٠) نفسه، م١، الصفحات (٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١).
(٣١) نفسه، م١، ص ٣٣٩.
(٣٢) نفسه، م١، ص ص (٣٥٣ - ٣٥٤).
(٣٣) نفسه، م١، ص ٣٧٩.
(٣٤) نفسه، م١، ص ٤٠٣.
(٣٥) نفسه، م١، ص ٤١٨.
(٣٦) نفسه، م١، ص ٥٢٦.
(٣٧) نفسه، م١، ص ٥٥٣.
(٣٨) نفسه، م١، ص ٥٧٦.
(٣٩) نفسه، م١، ص ٥٨٢.
(٤٠) نفسه، م١، ص ٥٨٣.
(٤١) نفسه، م١، ص ٦١٥.
(٤٢) نفسه، المجلد الثاني ص ٥٥.
(٤٣) نفسه، م٢، ص ٨٦.
(٤٤) نفسه، م٢، ص ٩٤.
(٤٥) نفسه، م٢، ص ٩٥.
(٤٦) نفسه، م٢، ص ١٤٣.
(٤٧) نفسه، م٢، ص ١٦٦.
(٤٨) نفسه، م٢، ص ١٧٣.
(٤٩) نفسه، م٢، ص ١٧٦.
(٥٠) نفسه، م٢، ص ١٤٧.
(٥١) نفسه، م٢، ص ١٧٩.
(٥٢) نفسه، م٢، ص ١٨٥.
(٥٣) نفسه، م٢، ص ١٨٧.
(٥٤) نفسه، م٢، ص (١٨٦ - ١٨٧).
(٥٥) نفسه، م٢، ص ١٩١.
(٥٦) نفسه، م٢، على التوالي، الصفحات (٢٤٩ - ٢٥٠ - ٣١٨ - ٤٠١ - ٤٢٧ - ٤٣٦ - ٤٣٨).
(٥٧) من حوادث عام (١٢١٧ هـ/١٨٠٢ م)، المجلد الثاني، ص ٥٤٣.

(٥٨) من حوادث عام (١٢١٨ هـ/١٨٠٣ م)، المجلد الثاني، ص ٦٠٠

(٥٩) المجلد الثاني، ص ٦٢٠ .

(٦٠) من حوادث عام (١٢١٩ هـ/١٨٠٤ م)، المجلد الثالث، ص ٢٣ .

(٦١) من حوادث عام (١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ م)، المجلد الثالث، ص ٧٣ .

(٦٢) من حوادث عام (١٢٢٣ هـ/١٨٠٨ م)، المجلد الثالث، ص ٢٤٣ .

(٦٣) من حوادث عام (١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م)، المجلد الثالث، (ص ٢٥٤).

(٦٤) من حوادث عام (١٢٢٦ هـ/١٨١١ م)، المجلد الثالث، ص ٣٣٢ .

(٦٥) من حوادث عام (١٢٢٨ هـ/١٨١٣ م)، المجلد الثالث، ص ٣٩٥ .

(٦٦) من حوادث عام (١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م)، المجلد الثالث، ص ٤٧٨ .

(٦٧) المجلد الثالث، ص ١٠٩ .

(٦٨) المجلد الثالث، ص ٣٤١ .

(٦٩) المجلد الثالث، ص ١٠٦ .

(٧٠) المجلد الثالث، ص ٤١٥ .